اللغة الأكدية توأمة اللغة الفصحى

بقلم إحسان محمد جعفر

اللغة العربية المعهودة، التي تحمل هذا الاسم الآن، لغة سامية، وهذا يعني أنها من الناحية التاريخية إحدى لغات ينتظمها إطار تاريخي معين، كما تسري فيها خصائص متشابهة معروفة بيد أن العربية تختلف عن هذه اللغات السامية على الرغم من انتمائها إليها، وهذا الاختلاف متأت من أننا لا نعرف نشأة هذه اللغة العريقة وأولياتها على وجه اليقين والجزم على غرار ما نعرف به بعض اللغات السامية الأخرى، ومع هذا فاللغة العربية قديمة وقديمة جدا، وليست وليدة القرن الثالث أو الرابع الميلادي، لا وليست حتى وليدة القرن السابع قبل الميلاد، إنما هي أقدم من ذلك بزمن سحيق موغل ولكن انقطعت عنا حلقاتها الأولى والاعتقاد الغالب اليوم الذي ما فتأ يتأصل أنها أقدم من السريانية، والعبرية، والكنعانية، والأكدية... وأنها أصلها جميعا وأرومة كل لغة سامية ومصدرها الذي انبثقت منه.

ومن البدهي أن عربيتنا التي نكتب بها الآن ليست هي بعينها التي كان يتكلم بها سكان جزيرة العرب الأقدمون في القرون الخالية وإنما كانت اللغة القديمة أكثر سذاجة وبساطة، وأعرى عن أساليب الجمال وأدنى في مراتب الكمال مما بلغته لغتنا هذه التي وصلتنا ابتداء من العصر الجاهلي حيث ما أن ينتصف القرن السابع الميلادي حتى يجد مؤرخ اللغة نفسه إزاء لغة عامرة، متكاملة، غنية بمادتها واضحة في أساليبها ناضجة في صورها التجريدية، فيما يومىء إلى درجة عالية من الرقي العقلي يتنافى والصورة المشوهة التي صور بها الأخباريون عرب الجزيرة العربية، لقد ورثنا نصوصا لغوية تعود إلى العصر الجاهلي لا يمكن أن تكون بحالة من الأحوال بدائية لأنها تنبىء عن لغة وصلت إلى مبلغ من الكمال، فضلا عن أن ما وصلنا من انضباط إعرابي في الشعر الجاهلي يدل بصراحة متناهية على تطور طويل الأمد وتقليد عريق في ضبط اللفظ وهذا بدوره يستبعد وصوله من غير لغة مكتوبة تستحوذ القدرة على تأدية الحركات الاعرابية فثمة اعتقاد يترسخ وهو أن العرب القدماء كانوا يعرفون الكتابة، وأنهم في الزمن الموغل في القدم كانوا يصطنعون الكتابة المسمارية المقطعية

وإذا ما صحت هذه المقولة، فإنه يمكننا القول بلا تردد : إن هذه الكتابة بتطورها تفرع عنها ما أسمي فيما بعد بخط المُسْنَد المستخدم في الكتابات اليمنية، ومثل هذه اللغة لا بد أن تكون ذات صلة وثيقة بلغة ما كانت في المجال العربي إن لم تكن إحداهما متحدرة من الأخرى ! ويشجع على هذا الافتراض الدراسات اللغوية الحديثة والاكتشافات الآثارية الأخيرة.

ولقد كثر الكلام عن اللغة العربية وعلاقتها باللغات السامية الأخرى كاللغة الآرامية، واللغة الكنعانية، واللغة العبرية إلخ... وعلى الرغم من وجود تقارب شديد بين هذه اللغات واللغة العربية، إلا أن هذا التقارب لا يصل إلى حد التشاكل والمداخلة بين الأكدية والعربية وما نشهده للغة الأكدية بفرعيها : البابلي والآشوري وبخاصة لغة بابل التي تكلم بها في عصر حمورابي من توافق أو بالأحرى توأمة مع العربية الفصحى من حيث الصيغ والألفاظ والتصريف والاعراب والأصوات يجنح بنا إلى التأكيد على أن لغة النصوص الأكدية القديمة التي ترجع إلى عهد حمورابي لابد من أن تكون متحدرة من العربية ويعضد هذا الرأي التلاحم الذي تظهره الدراسات المقارنة بين اللغتين بشكل عام وبين الأكدية ولهجات الجنوب العربي القديمة بشكل خاص... فالقواعد الأكدية القديمة التي وصلتنا هي كقواعد اللغة العربية ونحن نجد فيها صيغا للمفرد والمثنى (خلافا للسريانية) والجمع كما نجد الجمع ينتهي بالواو رفعا وبالياء نصبا (ملكو ــ ملكي) وتضاف ألف وتاء أو (يت) في حالة جمع المؤنث، وتوجد حالات الرفع والنصب والجر للأسماء (الاعراب) مثل : طابو، طابا، طابي كما في اللغة العربية تماما وكل ذلك يتم بالكلمة الواحدة المفردة عند تركيبها في الجملة، والصفات تطابق الموصوفات في الجنس والعدد وكذلك في الأكدية ضمائر متصلة تتصل بالأسماء كالياء للمتكلم، والكاف مفتوحة للمخاطب ومكسورة للمخاطبة وهكذا... ناهيك عن الضمائر المنفصلة واسمي الفاعل والمفعول والاشتقاقات الأخرى نحوا وصرفا.

وصيغ الأفعال في الأكدية أقرب إلى الصيغ العربية، وهناك صيغة في الأكدية لا تزال تحفظها العربية وهذه الصيغة هي «انفعل» التي تجعل الفعل يتكامل ذاتيا، «وتقلب النون واوا» في مثل فعل «أنولد» فتصبح بعد إدغامها «أولد» وذلك وفق قاعدة حروف القلب العربية وتبقى تفيد معنى الفعل الذاتي.

وكذلك ثمة اشتراك وتشابه في الأسماء والمفردات بين اللغتين فمن الألفاظ المشتركة الكثيرة نذكر : أب، أم، أخ، مالك، ديان، شمس، نهر، يوم، بيت، باب، لسان، ماء وأكثر الأعداد ومن الألفاظ المتقاربة.

أكدي	عربي

أسماء

إيلو	إله
سومو	اسم
سامي	سماء
أرتسيت	أرض
ميتو	موت
إلامو، علامو	عالم

حروف

لا	لا
ادى	حتى
كي	إن

صفات

رابو.....عظيم، رب
طابو.....طيب

ضمائر

أناكو.....أنا
اتّا.....أنتَ
اتِّي.....أنتِ
أنحنو.....نحن
أتون.....أنتم
أتِن.....أنتن

أعداد

ايخيت.....واحد
شاناي.....اثنان
شلشت.....ثلاثة
شيلاش.....ثلاث
أربت.....أربعة
أربا.....أربع
ماي أو مي.....مائة

أفعال

ألك (هلك).....ذهب
باخار.....انتخب
بنا.....بنى
دنا.....أعطى
دين.....دان

وهذا التباين الطفيف بين ألفاظ اللغتين يمكن أن يرد إلى اختلاف التلهج، ويتضح ذلك إذا أراد الناطق أن يتصرف بشيء من الأناة بالمد والقصر والتفخيم والترقيق أو الاشمام أو الامالة في أداء الأصوات. ثم إن الأسماء الأكدية هي كالعربية منها ما هو مذكر ومنها ما هو مؤنث والمؤنث ينتهي غالبا بتاء التأنيث، إذ كل كلمة تنتهي بتاء مضمومة أو ملحوقة بواو هي مؤنث وإن خلت من التاء وبقي الحرف الأخير مضموما أو ملحوقا بواو فهي مذكر، وعليه فإن ألفاظا مثل (أماتو، أميتو، ليلاتو، بيتو، مارتو، صغيرتو) هي ألفاظ مؤنثة بينما (بتولو، صغيرو، أمو، أخو، كاكابو) هي ألفاظ مذكرة، وإذا ما استقرأنا النصوص الأكدية بإمعان فإننا سنجد أن للاسماء الأكدية مذكرا ومؤنثا مثل (بتولو ــ بتولتو) (كلبو ــ كلباتو) (أخو ــ أختو) ومثيل هذا في اللغة العربية (نمر ــ نمرة، ذئب ــ ذئبة، غزال ــ غزالة) وقد وجد أن بعض الأسماء التي سقط بعض حروفها بالاستعمال في السريانية والعبرية لا تزال محفوظة في العربية كما هي في الأكدية مثل «أنف» فإنها ترد بصورة «أنب» في الأكدية بينما سقطت نونها في العبرية والسريانية، ولا يخفى أن الباء بالأكدية تقابل الفاء بالعربية وهذا معروف في الابدال اللغوي.

وكذلك كلمة «العنب» هي في العربية بلفظ واحد ومعنى واحد بينما سقطت منها النون في العبرية والسريانية.

وهناك ظواهر لغوية عديدة تتفق العربية والأكدية فيها غير ظاهرة الاعراب والتأنيث بالتاء وجمع المذكر السالم بالواو والنون التي ذكرناها، منها ظاهرة التنوين التي هي في الأكدية «ميم» وفي العربية «نون» والميم والنون يتبادلان ويلوح لنا أن ظاهرة «التميم» في الأكدية إنما مقتبسة من لهجات الجنوب

العربي القديمة التي كانت تأخذ بالتنوين بدلا من التنوين كالسبأية والمعينية والقتبانية إلخ...

ولعل الطريق الصحيح للبحث عن أساس قواعد اللغة العربية نجده في تضاعيف ما حفظته الكتابة المقطعية من قواعد اللغة الأكدية إذ ما نجهل أصله من قواعد اللغة العربية وحالات إعرابها واشتقاقات ألفاظها نجده في الأكدية.

وهذا التشاكل والتداخل بين عربيتنا وبين الأكدية الذي لمسنا مدى مداه وأبعاده، يطرح سؤالا، وهو : أي اللغتين هي الأصل ؟ وعمن التنوين والاعراب ؟ وفي الحقيقة هنالك رأيان، الأول يرى أن لغة عرب الشمال (العدنانيين) متحدرة من الأكدية، وأن إسماعيل بن إبراهيم الخليل الذي تقول المصادر العربية إنه «أول من تكلم بالعربية المبينة الفصيحة» (أي المعربة) هو الذي أدخل هذين التكييفين (الاعراب والتنوين) على العربية العتيقة التي تعلمها من جرهم بعد مصاهرته لها، ولا يخفى أن موطن إبراهيم والد إسماعيل كان في بابل، وعلى هذا يكون القريشيون بابلي الأصل، ولما دخلوا جزيرة العرب أدخلوا إليها لغتهم أو بالأحرى لهجتهم السامية وبخاصة علامات الاعراب والتنوين ومن ثم كان دور قريش في تهذيب اللغة العربية ووضع أسس اللغة الفصحى الذي طالما تحدثت عنه المصادر العربية وإلى أصل قريش يشير ابن عباس بقوله «نحن معاشر قريش من النبط من أهل كوثى ربا» وكوثى تل في شمال شرقي بابل، قيل إن ابراهيم ولد بقربه، وأنت تعلم أن مراد العرب بنبط العراق البابليون الأقدمون وعليه قول المسعودي في «مروج الذهب» : «ملوك بابل هم النبط المعروفون بالكلدانيين»، ولهذا فإن بعض الدارسين يرى أن اسم العرب آت من الغرب، ويقولون إنهم أسموا كذلك لأنهم تركوا بابل، واتجهوا غربا، وفي اللغات السامية القديمة حرفا العين والغين يتبادلان.

أما الرأي الثاني وهو ما نرجحه : فيرى أن الأكدية هي المتحدرة من أصل عربي والحجة في ذلك أن العديد من المؤرخين يؤكدون على أن الدولة البابلية التي تنتمي إلى حمورابي هي عربية النجار، وكذلك الدولة الكلدانية التي تنتمي إلى الشيخ كلدة (أحد أمراء العرب). وكان بيروسوس المؤرخ الآرامي القديم قد أشار «إلى أن العرب استولوا على بابل وجلس منهم على أريكتها تسعة ملوك مدة 245 سنة»، والمؤرخون وجدوا أن زمن استيلاء العرب القدامى على بابل يوافق عصر حمورابي.

وإذا كان الشأن كذلك، فالبابليون اقتبسوا لغتهم من العرب الأولين، المنتمين إلى حمورابي أو كلدة الذين كانوا يتكلمون اللغة العربية العادية (نسبة إلى قبيلة عاد البائدة).

وعلى كل فالجزم في هذه المسألة من الأمور الصعبة حسب المعطيات الحاضرة، ولعلها تنجلي باستمرار الاكتشافات الآثارية والوقوف على أسرار لغات الأقدمين.

* * *